

◆ سحر المشرق

من الأشعار التي تروى لعبد الرحمن الداخل قوله :

إقْرَ مَنْ بَعْضُ السَّلَامِ لِبَعْضِي	أَيُّهَا الرَّكَّابُ الْمَيِّمُ أَرْضِي
وَفؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِي	إِنْ جَسَمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضِي
وَطَوَى الْبَيْنَ عَنْ جَفُونِي غَمَضِي	قَدَّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَاغْتَرَقْنَا
فَعَسَى بِاقْتِرَابِنَا سَوْفَ يَقْضِي	قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْبِعَادِ عَلَيْنَا

هذه الأبيات ذات دلالة مهمة ، لأنها تصور نوازع الأمير الباسل إلى مطارح عزته بالمشرق ، فجسمه بالأندلس وحده ، ولكن فؤاده بالمشرق ، وهذا الشعر أعظم من أن نقصره على هوى وجداني يتصل بحبيبة معينة ، فالمعروف عن الداخل أنه قدير على كبح أهوائه ، مُعْرِضٌ عَمَّا يَعُوقُ مَجْدَهُ السِّيَاسِيَّ من ترف وأنس وغيدٍ وشباب ، وقد وقعت من قلبه بعض الشابات الفواتن في غفوة من غفوات إرادته فلم يمهلهما غير أسبوع ، وأطلق سراحها ، معلناً لها في تأثر مريع ، أنه لا يستطيع أن يسجنهما في قصر من الذهب لا يغاديه صاحبة إلا على أبعاد تترامى حتى تكاد تنقطع .. أقول : إن هذه الأبيات تصور ظمأه الحار إلى مجد الشرق ببغداد ، وولوعه أن يصبح ذات يوم فيجد نفسه حاكم المشرق لا غريباً نائياً يصارع الأهواء المتناحرة في أقصى البلاد ، وكانت الأهوال العاصفة من حوله تذكي بقلبه لواعج هذا الحنين المتقد ، فيوسف الفهرى والصميل يجتمعان بادئ ذي

بدء على مناوءته ، فإذا تغلب عليهما بجهد جاهد نازعه القاسم بن يوسف ، ثم يتوالى
الثائرون من بعده من أمثال عبد الغافر اليمنى ، وحيوة بن ملامس ، وهشام الفهرى ،
والعلاء بن مغيث ، حتى تعظم الداهية بظهور الفاطمى البربرى .. نحن متتالية متشابهة
كليات المحاق ، هذه من تلك ، والرجل الطموح لا يكاد يتنفس فى تؤدة ، فإذا فرغ فى
بعض أوقاته للنهوض الداخلى ببلاده هاله أن يجد الفرق شاسعاً بين فوضى البربر وقبائل
القيسية واليمنية وأخلاق الأسبانيين ممن يحكمهم فى دولته الناشئة ، وبين حضارة
المشرق ، وثقافة بغداد ، وسحر دمشق ، وإذا كان لابد مما ليس منه بد فليتخذ من الشرق
مثالاً حضارياً يحتذيه ، ولتكن بغداد بحضارتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها منار هدايته ،
على ضوء حضارتها يبنى دولته ، وبثقافتها الحية يملأ عقول رعاياه ، وبأدبها الزاهر من
شعر ونثر يسكر أرواحهم بما يلذ ويشوق .

كانت المشرق إذن أستاذ الأندلس ، تتطلع إليه فى إخلاص ورغبة ولا تحاول قبل
عصر الناصر أن تقيس نفسها به ، بل كبرى منها أن تحرز نفائس مؤلفاته وروائع آثاره ،
وأن يُعَدَّ أبنائها الرحيل إلى الارتشاف من حياضه والرى من موارده ، فإذا وفد عليهم
وافد من أعلام الشرق تطلعت إليه العيون فى إطبار ، واقتعد مقعد الأستاذ عن فخر
واعتماد .

ومعروف أن الكثرة الكاثرة من جنود الفتح الأول كانت من البربر ، والأقلية القليلة
من العرب ، وهؤلاء وأولئك لا يتيسر لهم أن يقيموا ثقافة أدبية أو حضارة عمرانية ، لأن
البرابرة بداءة لم يتمكنوا من العربية ، وزملاءهم من العرب فى صراع طائفى بين قبائلهم
تارة وبينهم وبين المغاربة تارة ثانية ، وبين الاثنين وبقايا القوط من غلاة الناقمين تارة
ثالثة ، وحالة كهذه لا تسمح برقى وازدهار ، حتى إذا جاء الداخل مهد الأسباب إلى تدفق
عربى جديد ، وقد اضطرتته السياسة أن يستعين بهم على البربر تارة ، وأن يستعين بالبربر
عليهم فى أكثر المنازعات ، حتى إذا هدا الجو بعض الشئ فى أواخر أيام الداخل بدأ
الاهتمام بثقافة المشرق يأخذ مأخذه ، وتطلع التلاميذ المغتربون إلى أساتذة كبار ! على أن
أسباب الاتصال بين المواطنين كانت ممهدة ميسرة ، فأرض الإسلام بلد واحد فى منطق

الرعايا والأفراد ، يرحل المسلم إذ ذاك ما يرحل فلا يسأله سائل ماذا يقصد ؟ وأين يريد ؟ ومن يرحل من الأندلس إلى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويرجع إلى بلاده حاملاً نفائس المؤلفات وراويًا بدائع الأشعار ، ومسجلاً ضوابط اللغة والعلوم ، فيتبوا مكانة الأستاذ ، ويعظم في عيون مواطنيه عظمة تخصصه بالهيئة والجلال ، وتمهد له مناصب الفتيا والقضاء إن تفقه ، والوزارة والكتابة إن تفقه وتأدب .. هذا مَنْ رَحَلَ إلى المشرق ، أمّا مَنْ قَدِمَ من أعلامه فهو تحفة نادرة يتوافد الناس إلى رؤيتها ، ويقبلون على الاستفادة من غيرها ، وقد سجل المؤرخون كتباً كثيرة تحمل أسماء من رحل وعاد ، كما تسجل مواقف من قدم فأفاد ، وهناك كتب أخرى تجمع أسماء المؤلفات الوافدة من المشرق ، وهى تضم نفائس أعلامه فى كل مجال من مجالات الثقافة فقهاً ولغة ، ونحواً وتصنيفاً وتاريخاً وأدباً ، دع ما عرف من فنون الجدل والفلسفة ، فقد ظلت الأندلس بمنأى عنه إلى أمد بعيد .

أتت الرحلات والمؤلفات ثمارها ، حتى جاء عهد الناصر وولده الحكم ، فكانا بالأندلس بمكان الرشيد وولده المأمون بالمشرق ، فإذا كان هارون الرشيد قد أحيا الحركة الأدبية ببغداد على عهده ، بما نفح به الشعراء من هباتٍ جزيلة ، وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائي وأئمة اللغة والأدب فى أبهاء مجالسه ، ثم بما أنشأ من خزانة الحكمة ، حين ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وأخذ يجمعها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، ثم جاء ولده المأمون فسار فى الشوط إلى نهايته ، وشابه أباه فى تغذية الحركة الفكرية ، بحيث كانت مجالسه مدارس علماء ، وحلقات مفكرين ، ثم زاد فى نطاق بيت الحكمة حين راسل ملك الروم فى إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه ، وبعث لذلك جماعة من أفذاذ الترجمة ، كابن البطريق ، وسلم ، والحجاج بن مطر ، حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلمًا ، كما تمثلت فارس والهند أدباً وحكمة ، إذا كان الرشيد والمأمون قد خطّوا هذه الخطوات العلمية ببغداد ، فإنهما قد رسما الطريق للناصر وولده الحكم بالأندلس أن يقفوا أثرهما فى هذا المجال المديد .

لقد بدأ الناصر فاستقدم أبا على القالى صاحب الأمالى ، وساعده استقرار الأمن فى بلاده ، وازدهار الرخاء فى عصره ، وطموح الأمل فى نفسه ، أن يدفع البلاد إلى نهضة ثقافية شاملة ، وحضارة إنسانية زاهرة ، وكان أثره الغالى بعيداً رائعاً ، حيث تَخَرَّجَ على يده أعلام ثقات فى الدراسات اللغوية ، كما استطاع أن ينصر المذهب القديم فى الشعر العربى حين روى آثار الجاهليين والإسلاميين ، وظل فى قرطبة ثمانية وعشرين عاماً ، ومهما كان من تأثيره اللغوى والأدبى فإنه لا يُقاس بأثره العظيم فى تنشئة الحكم نشأة أدبية ، جعلته - وهو ولى العهد - يبذل المستطاع فى جمع الكتب وتأليفها ، حتى إذا أصبح صاحب الأمر فى البلاد ، احدث هذا الدوى الرنان فى دنيا الثقافة الأندلسية . ويقول الذين تحدثوا عنه من الكاتبين : «إنه كان نَظَّاراً فى الكتب ، كثير التعليق عليها ، وقلماً تجد كتاباً فى خزائنه دون أن يكتب عليه معلقاً» .

كما كان يرسل إلى أفذاذ العلماء فى الشرق والغرب يدعوهم إلى التأليف فى موضوعات يقترحها ، إذ يجد المكتبة العربية فى حاجة إليها ، ولم يكن أنانياً يشغل نفسه بعائلته وبنفسه ، فيطلب إلى المؤلفين تسجيل مآثر أجداده كما لمسنا عند كثير من الملوك والرؤساء ، ولكن سعة عقله قد ارتفعت به إلى أوج باهر ، فنظر إلى التأليف نظرات موضوعية ، إذ كان حريصاً على أن يجمع لديه التراث الأندلسى على أوسع نطاق - وهذا مما يُحمد له - فقد كلف أدباء كثيرين بالكتابة عن شعراء الأندلس وقضائهم وعلمائهم وفقهائهم ، ولعله كان يريد أن يحى الثقة لدى الأندلسيين فى عصره حين يجدون آباءهم قد تركوا من التراث العلمى ما يمتع ويفيد ، فيواصلون البحث نشطين .. ومن فى حضرته من المؤلفين إسحاق بن سلمة ، وهو مؤرخ ضاعت أكثر آثاره ، وابن فرج ، مؤلف الحقائق بإرشاد منه ، وخالد بن سعيد ، ومحمد بن الحارث الخشنى ، والزييدى ، وغيرهم من الأفذاذ . بل إن القارئ ليدعش حين يجد الحكم يضع للمؤلف فهرس كتابه ، ويرسم له خطة تأليفه ، فالزييدى يقول فى مقدمة كتابه عن النحاة : «.. وأن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - رضى الله عنه - لما اختصه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم ، أمر بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سَلَفَ من النحويين واللغويين فى

صدر الإسلام ، ثم مَنْ تلاهم مِنْ بعد إلى زماننا هذا ، وأن أطلبهم على بلادهم وزمانهم حسب مذاهبهم فى العلم ومراتبهم .. فألفتُ هذا الكتاب على الوجه الذى أمرنى به ، وأقمته على الشكل الذى حدّهُ ، وأمّدى - رضى الله عنه - فى ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعنى من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذى لا تعبر أواذيه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته ^(١) .

ولا تظن أن الزبيدى قال هذا القول تزلفاً للحكم دون أن يكون له نصيب من الواقع ، لأن سيرة الحكم تدلنا أنه كان أبعد الخلفاء عن الاهتمام بتزلف الوصوليين ورياء المغرضين ، ومسلكه مع فقهاء قرطبة يؤيد ذلك أبلغ التأييد ، فلو كان الرجل حريصاً على انتشار الصيت الكاذب ، لاتخذهم أبواقاً ينفخون فى الدعاية لسلطانه ، ولكنه عارض جمودهم المتزمت ، ولم يحفل بما يتخرسون به لدى الناس ، وهُمْ مَا هُمْ إِذْ ذَاكَ ، نفوذ كلمة ، وامتداد صيت ، حتى ألبوا عليه الجموع وكادوا ينجحون فى استئصاله لولا حيلته البارعة ، مع أخذهم بالشدة حيث اتسع الحرق على الراقع .. وأنا أعجب لهذا الخليفة العالم البهائى ، كيف استطاعت مآزق السياسة ومعاثر الدولة أن تهينى له من الوقت ما ينفقه فى بناء الثقافة ، ووضع الفهارس لبعض المؤلفات ، وجمع الأدباء من شتى الأقطار ، وشراء الكتب من أبعد الممالك ، وحرصه على ذلك حرصاً مدهشاً ، حتى قال الكثيرون إن كتاب الأغانى بكافة أجزائه قد ظهر لدى الحكم قبل أن يظهر لدى المشرق ، لأنه كان يقف على أدوار تأليفه وهو عنه بمنأى فى قرطبة ، فعمل على إحضاره بعد أن أثقل جيب أبى الفرج ؟! وأكاد أشك فى هذا الأمر ، لأن مؤرخى أبى الفرج يذكرون أنه لم يكن له فى حياته من النباهة وبُعد الصيت ما كان له بعد وفاته ، وأن قيمة كتاب الأغانى لم تظهر للناس على وجهها الباهر إلا بعد أن فارق مؤلفه الحياة !

نعم ، إنه كان من جلساء الوزير المهلبى وصديقاً لشعراء عصره وكتابه ورواته ، ولكن ذلك كله أضعف من أن يجعل الحكم فى قرطبة يترصد خطواته فى التأليف ، والأمر مع ذلك موضع شك لا أكثر ولا أقل .

(١) طبقات الزبيدى ٩ - ١٠ نقلاً عن كتاب الدكتور إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ص ٥٠ .

لقد انتقل الأدب الأندلسى فى عهد الحكم من الاعتراف بالتلمذة إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقى ، ولم يأت التلميذ مجديداً باهر يأخذ به أبصار أستاذه ، ولو قد فعل لدارت معركة صاخبة كالتى نشاهدها فى تواريخ الآداب بين الشباب والشيخوخة ، أو بين القديم والجديد .

ولكن التلميذ أراد أن يسابق أستاذه فى الإتيان بمثل ما لديه فقط ، والنتيجة مضمونة على كل حال ، لأن الإنتاج إذا كان متحد النوع ، متقارب المذاق ، فالفضل لصاحب التجربة الطويلة ، والتاريخ المديد ، والإنتاج الحفيل . والحق أن الشعور النفسى لدى الحكام (من طبقة الناصر والحكم) ، والأدباء (من كتّاب وشعراء) ، بأن أدب العباسيين هو النمط المحتذى فى القول ، قد أوصد أمامهم أبواب الابتكار ، فإذا أضفنا إلى ذلك تشابه التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء ، فإن تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنده ولا محيد ، وما وجد من ضروب التجديد مما سنفيض فى بعض بواعثه ، ومميزات لونه ، لم يكن مقصوداً معتمداً ، ولكنه فى أهون أمره يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة المطردة .. وأصحاب المقارنة بين الأدبين يفيضون فى بيان طرق الاحتذاء وألوانه ، ويرددون أسماء المقلدين ومنازع تقليدهم ، ولهم فى كل كتاب يرصد أمواج الفكر الأندلسى بُتٌ حافل بالكتب والأسماء ، فهم مثلاً يقولون إن أبا الفضل جعفر بن شرف القيروانى ألف كتاب الزمان محاكاة لكتاب كليله ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وأن كتاب الحقائق الذى وضعه أحمد بن فرج الجياني قد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني ، وأن كتاب المظفرى الذى كتبه ابن الأفطس - صاحب (بطليوس) - قد عارض به عيون الأخبار لابن قتيبة ، ويقع فى نحو من عشرة أجزاء ، كما أن هناك أكثر من ديوان شعري سُمي بالحماصة مختاراً على طريقة أبى تمام ، أما كتاب الأنساب للسمعاني فقد عارضه الرشاطى المحدث الأندلسى بكتاب على غرارهِ ... وتطول القائمة لو ذهبن نستوعب ، فحسبنا أن نشير .. ولن نجد فى باب الموازنة بين شعراء المواطنين أوضح من تسمية كل شاعر أندلسى بقريع مشرقى ، فابن هانئ وابن دراج كلاهما يُوصَف بأنه متنبى الغرب ، وابن زيدون بُحتره ، وابن خفاجة صنوبريه ، وابن طفيل عُرف بابن سينا ،

واشتهرت ولادة بعلى بنت المهدي ، وقيل لابن عبد البر - صاحب الاستيعاب - حافظ المغرب ، كما قيل للخطيب البغدادي حافظ المشرق .

أذكر أن الأستاذ محمد رضا الشبيبي - علامة العراق وشاعره - قد استقصى هذا الموضوع في كتابه عن أدب المغاربة والأندلسيين ، قال الشبيبي :

«إن الأندلسيين قد استعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس والمغرب ، فشبهاوا أشبيلية بجمص ، وغرناطة بدمشق ، وفاس ببغداد ، إلى غير ذلك ، وأحدثوا بلدة سُميت البصرة ، تشبيهاً لها بالعراق» .

ثم قال العلامة الشبيبي تعقيباً على ذلك : «وهذا - مما يُذكر للمغاربة والأندلسيين ، ويدل على فضلهم وتواضعهم - ضرب من الاعتراف بسبق المشاركة وتفوقهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف^(١)» !

ويُخيل إلى أن السبق الزمني بأكثر من مائتي عام بين ازدهار الحضارة العربية بالشرق ، وازدهارها بالأندلس ، جعل هذا الاعتراف أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ، يتقدم به اللاحق للسابق عن طوعية ، ولكننا نتساءل : أكان هذا الاعتراف إجماعاً تنعقد عليه الكلمة ، ويشار إليه في مجال التفضيل أم أن هناك من أدباء الأندلس على بصرهم الناقد مَنْ ضاقوا به وأنكروه ؟.. إن لدينا نصوصاً كثيرة لأفذاذ من الأندلس يحاولون بها أن يجعلوا الأندلس مع المشرق في قرن واحد ، بل ساروا إلى أبعد من ذلك ، فجعلوا الأندلس راجحة والمشرق مرجوحاً ، وأظهر من جال في مضمار التفاضل علامة الأندلس ، وفتيهاها الأكبر ، وباحتها النابغة ابن حزم ، فقد عقد رسالة في فضل الأندلس ، وذكر رجالها ، أوردها المقرئ في الجزء الثاني من النفع^(٢) ، فاستعرض ما أثر عن بلاده في مضمار التأليف - من تاريخ ، وتفسير ، وحديث ، ولغة ، وأخبار ، وطب - استعراض من يرى السبق الظاهر في إقليمه ، ثم ختمها بقوله : «وبلدنا هذا على بُعد

(١) أدب المغاربة والأندلسيين ، ص ١٠-١٣ للعلامة الشبيبي ط معهد الدراسات العربية بالقاهرة .

(٢) نفع الطيب - ج ٢ ط أولى .

من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلب مثلها بالأهواز ، وفارس ، وديار مضر ، وديار ربيعة ، واليمن ، والشام ، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق ، التى هى دار هجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها ، ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرى جفونة بن الصمة الكلابى لم نُباو به إلا جريراً أو الفرزدق ، لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى .. ثم أفاض ابن حزم فيما يشبه ذلك عن العلماء ، حتى قال عن الأدباء :

«ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار ، وحبيب ، والمنتبى ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شبيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد البرادى ، وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة» .

وأنا حين أقرأ هذه الأسماء - مع ثقتى بابن حزم وسداد حكمه - أعلم أن جُلَّ شعر الأندلس قد ضاع لا محالة ، فكيف يكون هؤلاء فى منزلة بشار وأبى تمام والمنتبى ثم لا نعلم عنهم شيئاً إلا ما جمع من ديوان ابن دراج ؟! على أننا نكاد نجزم بأن الذى فُقد - على كثرته - من طراز ما وُجد على قَلْبِهِ . فالحُكم على نوع الأدب وتحديدده لا يختلف ضياعاً أو وجوداً ، فلئن غاب مائة ديوان ووُجدَ عشرون - مثلاً - فالمعين الدافق سائل واحد فى الحاضر والغائب على السواء ، وهو ما لا يجيد كثيراً بالحُكم على أكثر أدب الأندلس بالمحاكاة والترديد .. على أن الدكتور أحمد أمين فقد انتقد ابن حزم ومن لَفَّ لفه فى معركة الموازنة والتفضيل انتقاداً صائباً ، فهو يقول فى كتابه ظهر الإسلام^(١) :

«وما لا شك فيه أن المنهج الذى سلكه ابن حزم والشقندى ليس منهجاً علمياً ودقيقاً ، إنما هو كلام يقال ، فمن الصعب جداً الحُكم بأن فرداً أذكى من فرد ، فكيف الحكم بأن أمةً أذكى من أمة ، بل إنها أذكى من الأمم ، ومسلكتهما - يقصد ابن حزم والشقندى

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

، بعد أن عرض كلامه ، وهو ممن يدور في فلك ابن حزم - الذى سلكاه أنهما يحكما حكماً كلياً ثم يستدلان عليه بمسألة جزئية ، فيقولان إن أهل الأندلس عرفوا بعلو الهمة ، أو الاعتناء بالنظافة ، ويستدلون على ذلك بحادثة حدثت لرجل ، أو من رجل ، فكيف يصح هذا فى العقل ؟ إنما المنهج الصحيح هو - مثلاً - فى توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك فى أمة أخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك ، وبذا تطمئن النفس بعض الشيء عند النتيجة ، أما القول جزافاً بأن أمة أذكى ، والاستدلال بأن فلاناً ألف كتاباً قيماً ، فبرهان قاصر ، ومحال أن تكون أمة كثيرة العدد كالأمة الأندلسية لا ينتج منها علماء أعلام وأدباء فطاحل^(١) .

أعتقد أن الذين تعاضمهم سطوة الأدب المشرقى من أعلام الأندلس يعبرون عن جانب نفسى من مشاعرهم ، فهم لدى أنفسهم أعلام فضلاء ، ولكن ما يلمسونه مع مواطنهم الأقربين من تنافس وتصارع يؤديان فى بعض الأحيان إلى جحود وكفران ، قد جعلهم يضيّقون أولاً بما يصادفونه من عقوق ، ثم يوازنون أنفسهم بما يتخيلونه عن أعلام المشرق فى سبحاتهم الحالمية ، فيظنون أنهم فى مشرقهم لا يكابدون قليلاً مما يكابدون ، فيشعرون بمرارة لاذعة ، لا تلبث أن تنقلب ثورة على أدب هؤلاء بدون ذنب جنوه ، فابن حزم مثلاً على جلالة علمه ، ورسوخ قدمه ، كان قطباً لمعركة طاحنة تستخدم بها الآراء ، وله خصوم أقوياء لا يفتنون يمدون له أسباب الكيد والوقيعه حتى اعتُقل فى منزله ، وأُحرقت كتبه ، وهو عند نفسه لا يقل مكانة عن الشافعى وأبى حنيفة ومالك ، ولكن قومه ضيعوه ، ثم أخذوا يفاخرون بالمشاركة ، فاندفع إلى قوله السالف تحت تأثير ظروف قاهرة لا طاقة له باحتمالها ، ويدل على ذلك عند ابن حزم وآحاد من أمثاله ، ما يترنمون به من الشعر تنفيساً عن مشاعرهم المضطربة ، كأن يقول ابن حزم مثلاً :

أنا الشمسُ فى جو العلوم منيرة	ولكن عيى أن مطلعى الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبُ

فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم
فكم قائل أغفلته وهو حاضر
هنالك يدري أن للبعد قصةً

وكان يقول ابن درّاج القسطلی :

فإن غربت أرض المغارب موطنی
فكم رَحَّبْتُ أرضُ العراق بمقدمی
وأن بلادًا أخرجتني لعطل

فحينئذ يبدو التأسف والكرب
وأطلب عنه ما تجيء به الكتب
وأن كساد العلم آفته القربُ

وأنكرنى فيها خليطٌ وجيرانُ
وأجزلت البشرى على خراسان
وأن زمانًا خان عهدى لَخَوَّانُ

هذا ، والمثل القائل : «أحب شيء إلى الإنسان ما مُنِعَ» ، يعبر عن حقيقة نفسية ، لا ندري كيف غابت عن كاتب حصيف كابن حزم ؟ فالأدب الأندلسي في تناول أصحابه ، لا يحسون له وحشة أو اشتياقًا ، أما أدب المشاركة فبعيد ، يُسأل عنه في لهفة وحنين ، ولو مدَّ هؤلاء الناقمون أنظارهم إلى رجال المشرق لوجدوا ما لديهم هنا يماثل ما لدى القوم هناك ، فالمشاركة هم الآخرون يَحْنُون إلى روائع الأندلس ، ويلتمسون السبيل إلى تنسم أخبارها ، واستظهار أشعارها ، ويتقبلون ذوى الرحلة منهم - فى الأغلب - تقبل الارتياح والانشراح ، وقد حرص حكام المشاركة على تدوين أخبار إخوانهم رغبة فى الوقوف عليها ، وسَيَرُورَتَهَا بين الناس ، فالفقيه الطرطوشى صَنَّفَ «سراج الملوك» فى مدينة الإسكندرية استجابة لرغبة حاكمها المأمون البطائحي ، وابن القطاع قد صنف «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» ليرضى أدياء مصر ، والمحدث الأديب ابن دحية صنف كتابه الأدبي «المطرب فى أخبار شعراء المغرب» بناء على اقتراح الملك الكامل من بنى أيوب ، وهناك مطرب آخر فى الأدب غير مطرب ابن دحية سَبَقَ أن ألفه الكاتب الأندلسي اليسع بن حرم بمصر ، استجابة لرغبة صلاح الدين الأيوبي .. فإذا كان أمراء المشاركة ووزراؤها حراسًا على الأدب الأندلسي فهم يرونه أهلاً للتقدير والاحتراف ، ولا يسمعون من أبناء بلادهم من ينكر عليهم ذلك ، هذا من ناحية ، أما تخيل مكانة العلماء فى المشرق على مستوى لا ترتقى إليه مكانة الأندلسيين فى بلادهم فسرابٌ يتخايل من بعيد دون أن تقع له العين على حقيقة ، فهل نسى ابن حزم أن البلاء هنا هو البلاء هناك ؟

وأن أبا حنيفة - على جلالته علمه - كاد يموت تحت العذاب ؟ وأن مالكاً ضُربَ بالسياط ؟
وأن ابن حنبل قد امْتَحِنَ بما تزلزل به الجبال ؟ وأن عشرات من أمثاله جابههم الزمان بما
اعتاد أن يفجع به الكرام المرزُوقين مِنْ حَمَلَةِ الهدى والإصلاح ؟

إن زامر الحى لا يطرب كما يطرب الغريب الذى يدوى صيته قبل أن تقع عليه
العين ، ولذلك صرخ ابن بَسَّام - فى افتتاح الذخيرة - مردداً صرخة ابن حزم فى رسالة
المفاضلة ، بل عَبَّرَ عن حرارة كاوية تلهب جوانحه حين هتف فى أَلَمٍ لَدَّاعٍ ^(١) :

«وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين ، وأئمة
النوعين ، قوم هُمَ ما هُمُ ، طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ،
لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرَّق ، وحدوا بفنون السحر المنمق
حُدَاءَ الأعشى ببنات المخلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ،
وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل ، نُثِرَ لو رآه البديع لَنَسِيَ
اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حُكْمه . وَنَظُمَ لو سمعه كثيرٌ ما نسبَ ولا مدَحَ ، أو
تبعه جرول ما عوى ولا نبج ، إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ،
يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نَعَقَ بتلك الآفاق
غرابٌ ، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق دُباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً
محكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية ، ومناخ الرذية ،
لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاضنى منهم ذلك ، وأفقت
مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدتُ من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى
وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعودُ بدوره أهلاً ، وتصبح بحاره ثماداً ^(٢) مضمحلة ،
مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقدماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه
قبله ، وليت شعرى ، من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق
بالإحسان ؟! » .

(١) الذخيرة لابن بسام - مقدمة المؤلف - ط أولى - عن كلية الآداب المصرية .

(٢) مَدَّ الماءُ : قَلَّ .

نفثة مصدور بلا شك ! ولكن تحليلها واضح أسفر عنه ما كتبناه آنفاً بصدد مفاضلة ابن حزم ، ولعل من أثرها الحسن أن حَدَّتْ بَابنِ بسام إلى تسطير الذخيرة ، فقدم لنا تراثاً خالداً يُذكر له بالثناء ، على أنى أعجب لبعض الباحثين : لما يجعلون نتاج الأندلس يقف وحده أمام نتاج بغداد فى أخصب عهودها الزاهرة ، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر فى عهد الولاة ، وابن طولون ، والفواطم ، أو أدب الشام فى عهد بنى حمدان ، أو أدب ما وراء النهر من بلاد فارس وخراسان ؟! لماذا تقف الأندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة ، وهى بعد إقليم لا يختلف عن غيره من الأقاليم ؟ ثم ألا يكون ذلك دليلاً على سُمُوّ الأدب الأندلسى وازدهاره ، إذ استطاع أن يبلغ ما لم يبلغه أدب مصر أو الشام أو ما وراء النهر ، حيث لا يقف نتاج إقليم منها أمام أدب بغداد ..؟ قد يقال : إن قُرْطبة كانت عاصمة خلافة أموية ، كما كانت بغداد عاصمة خلافة عباسية ، وهى بذلك ترفع نفسها إلى مستوى المنافسة ، ولها أن تتحمل تبعة النتائج كما تجيء ، ولكن القاهرة أيضاً كانت عاصمة خلافة فاطمية تنافس بغداد وتهدها فى أمنع معاقلها الحصينة ، وكان لها بيت الحكمة على ضفاف النيل منافساً خزانة الرشيد والمأمون على ضفاف دجلة ، ومكتبة الناصر والحكم بالزهراء ، فلمَ قصر الأدب المصرى أن يطمح للمباهاة ؟ إن السبب واضح لا يحتاج إلى جهد ، فالأدب العربى فى مصر الفاطمية كان مقصوراً على الخاصة من ذوى المناصب والدواوين ، أما الأدب العربى فى الأندلس فقد كان نهباً مشاعاً لِلْكَثْرَةِ الكاثرة من طبقات الشعب^(١) ، وفيهم الزَّرَّاعُ والصُّنَّاع والتجار ، ومن يمتهن الحرف المتواضعة ، فتعمل يده ويفكر عقله ، ويترنم لسانه ، وحدث بعد ذلك عمّا يجيش به الأدب من لجج ترفدها جداول متكاثرة ، لا يهدأ بها تيار ، أو تقف دونها أسداد ... بذلك كله - وبغير ذلك أيضاً - استطاع نتاج هذا الإقليم المتأدب أن يزخر ويفيض .

يقول أساتذة الأدب المقارن : إن من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهاره ، تأثيره فى كثير من الآداب الأخرى ، وشعور ذوى العقلية الناضجة بعدم كفاية أدبهم القومى

(١) الأدب الأندلسى ص ٧٦ للدكتور جودت الركابى .

فى التعبير عن رغبات النفس ، ومبتكرات الحياة ، فيتجهون إلى أدب آخر يجدون لديه دماً جديداً ينقلونه ، أو ينقلون منه إلى أدبهم المحتاج ، فتجد به روح أخرى ، ويغمره نشاط يعيد إليه بعضاً من فناء النفس وشباب الروح ، ولذلك يقول (جوته) ، الشاعر الألماني الطائر الصيت : «ينتهى كل أدب إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى لتجدد الخلق^(١) من ديباجته » .

وما يقال عن الآداب المختلفة فى دنيا الأدب المقارن ، يقال كذلك عن أدب الإقليم الخاص بين آداب الأقاليم الأخرى فى اللغة الواحدة والأدب الواحد ، فقد شعر دؤو الملكات العالية بالأندلس بحاجتهم الماسة إلى أدب المشرق ، وقوى هذا الشعور ما لمسوه فعلاً لدى الأدب المشرقى من نفاذ وقوة وتأثير ، فعكفوا عليه عكوف مَنْ يراه غاية الأمل ، ومرتقى الإعجاز ، ولم يجلْ فى أذهانهم أن يتيامنوا كثيراً عنه إلى غيره ، أو إلى نفوسهم الخالقة ، إذ يسبرون أغوارها ، ويكتشفون مجاهلها ، فتسعدهم بالجديد .. وكان النتاج المشرقى من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الأبصار ، وخطف القلوب .. وأخذت المؤلفات المشرقية تتابع لتحذى ، ومهما كان تأثير هذه المؤلفات ، فإن أحدها - وهو يتيمة الدهر للثعالبي - قد بلغ بتأثيره فى صياغة الشر واتجاه النقد وكتابة التاريخ ما لم يبلغه أثر سواه ... ونحن نستأذن القارئ أن نبين له ذلك بما نستطيع به أن نخدم قضية التأثير والتأثير .



(١) الخلق : البالى من الثياب والجلد ، وغيرها .